

وجبة السردين !

من أعجب مظاهر الحياة الحيوانية التى تحدث فى الطبيعة، وتحمل للإنسان دلالات هامة بعضها سياسي وبعضها أخلاقى تلك الوجبة المضمخة من السردين الذى يتكاثر فى البحار الواسعة والمحيطات، ويبلغ مرحلة يحين فيها صيده من جانب عدة أفواه مفترسة من بينها الإنسان!

وتتمثل مشكلة السردين فى أنه سمكة ضعيفة، لذلك فإنها تتجمع فى مجموعات هائلة ، ظنا منها أنها بهذا المتجمع تكون أقوى، وتحمى نفسها من الأعداء..

وبالمطبع ما أشرس أعداء البحر! وأول هؤلاء الأعداء وهي "الدلافين" التي تجد في السردين وجبة لذيذة جدا، وتنتظر تجمعاتها في موسم محدد، ثم تقوم بدفعها إلى المكان الذي تستطيع التهامها فيه، وتظل بحركاتها المعهودة ترقص بجانبها، وتستدير حولها، ثم تدخل في عمقها وتفتنص ما تستطيع استيعابه منها. وكل ذلك يحدث في حركات سريعة وانسيابية.

لكن "الحيتان: وهي في الأصل من أكبر أعداء الدلافين ما تلبث أن تشم رائحة الموليمة، فتسرع بالاشتراك فيها بنفس القدرة والمهارة.

وهنا يظهر وضع عجيب: وهو أن الحيتان التي تتناول وجبتها الدسمة من الدلافين، لا تلتقى لها بالما في تلك الحالة، بل إنها تتكاتف معها، أحدهما من الأعلى والآخر من الأسفل لكي يحظى بنصيبه من السردين، بل من المأعجب أن "عجول البحر" المضحمة لا تتردد هي الأخرى في الاشتراك بالموليمة، غير عابئة بأنياب الحيتان التي تنغرس عادة في لحومها المكنزة!

وهكذا يشترك ثلاثة أعداء في وقت واحد في التهام السردين المسكين، الذي لا يجد له مهربا سوى الاقتراب من الشواطئ، فماذا يجد هناك؟ يجد "الإنسان" قد أعد له الشباك الكبير لكي ينتشله من الماء إلى الأقفاص، ومنها إلى السوق!!

ومع ذلك فإن هناك طرفا خامساً، يهبط من الجو بسرعة مائة كيلو في الساعة، وهي تلك "الطيور" التي تعودت أن تغوص في الماء على بعد ثلاثين مترا ثم تلتقط في منقارها سردينه وتصعد بها للهواء.

إذن فقد أصبح لدينا خمسة أعداء، عادة ما يتربص كل منهم بالآخر معظم الوقت، لكنهم تركوا عداوتهم مؤقتا لكي يحصلوا على تلك الوجبة المشهية من السردين. ومن نعمة الله أن السردين متوافر بأعداد هائلة، بحيث يكفى الجميع. فهل يمكن للإنسان أن يفكر جيدا فى دلالات هذا المشهد، وأن يستخلص منه الأبعاد السياسية والأخلاقية التى قد تساعده فى اتخاذ القرار الصائب فى مختلف المواقف الصعبة التى يتعرض لها. ومن أهم تلك الدلالات أن المضعف إذا تحالف مع ضعيف مثله لن ينتج عنهما إلما ضعيف مركب، وأن الأعداء قد يتغاضون عن عداوتهم مؤقتا من أجل تحقيق مصلحة سريعة ومباشرة لكل منهم، وأخيرا فإن نظام العالم قائم على "المدافعة" التى لا بقاء فيها إلما للأقوى!